

ملاحظة حول (عديد) بمعنى (معدود)

للسيد توفيق أبو الرب

يلاحظ المعني بالعربية الفصيحة هذه الأيام أن ثمة أسلوبين مُحدثين شائعين في استعمال كلمة "عديد"، الأول: أن تستعمل الكلمة وقد دخلت "أل" عليها، وجاء الحرف "من" بعدها، نحو قول القائل: لقيتُ العديدَ من الأصدقاء في السوق. وفي هذا الأسلوب لا يتورع الكاتب أو القائل عن أن يحلّي بالألف واللام الاسم "عديد" في ابتدائه الكلام، أو في أثناءه دون مسوغ، على الرغم من أن "أل" العهدية "إِما أن يشار بها إلى معهود ذهني أو ذكري، فالأول كقولك: جاء القاضي، إذا كان بينك وبين مخاطبك عهد في قاض خاص، والثاني كقوله تعالى: فيها مصباح المصباح...^(١).. و"عديد" في هذا الأسلوب يقصد بها "الكثير" كما هو واضح من الاستعمال!

..وأما الأسلوب الثاني فيلاحظ عليه أن كلمة "عديد" تأتي دائماً فيه نعتاً لاسم مذكور قبلها نحو قول القائل: لقيتُ أصدقاء عديدين في السوق. ويلاحظ أنّ كلمة "عديد" تعني أيضاً "الكثير" وفق هذا الأسلوب. فهل كان القدماء يستعملون كلمة "عديد" استعمال المحدثين؟؟

قبل أكثر من سنة قدّر لي أن أحضر مناقشة أطروحة أدبية في جامعة اليرموك، وقد لفت نظري ذلك اليوم أن الحضور كثار وقد أرجعت ذلك - بيني وبين نفسي - إلى أن أحد المناقشين في اللجنة هو أستاذ عراقي مشهور، فقد كان

(١) ابن هشام، شذور الذهب، ص ١٤٩، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية -

القاهرة - ١٩٦٥.

هو الدكتور أحمد مطلوب الذي لم يتوانَ عن أن يتجشم مشقة الحضور من القطر العراقي الشقيق؛ ليناقد رسالة جامعية تدور حول كتاب "التشبيهات" لابن أبي عون، وفي أثناء مناقشته الطالب، كان مما أخذه عليه أنه استعمال كلمة "عديد" نعتاً بمعنى "كثير"، وكان رأيه أن كلمة "عديد" تعني العدد فقط، ولا تأتي بمعنى "كثير"، واستشهد على ذلك بقول السموأل:

"تعيّرنا أنا قليل عديداً فقلت لها: إن الكرام قليل"

وهذا الذي ذهب إليه الدكتور مطلوب هو حق، وهو واضح، من تأمل البيت المذكور، ولكنه ليس الشاهد الوحيد، فثمة شاهد آخر، يتردد في كتبنا النحوية القديمة، لاحظت أنه يتضمن كلمة "عديد" بمعنى "عدد"، وهذا الشاهد هو قول الشاعر:

"عددت قومي كعديد الطيس"

إذ ذهب القوم الكرام ليسي"

وقد استشهد ابن هشام الأنصاري بالبيت في "مغني اللبيب" على أن الراجز استعمال الفعل الجامد "ليسي" دون أن يأتي قبل ياء المتكلم بنون الوقاية! وقد علق على البيت الذي لم يسمَ صاحبه بقوله: "وأما قوله عددت قومي... إلخ فضرورة"^(١) مما يدل على أن صاحبه ممن يحتج بهم من الناحية اللغوية، وليس من المحدثين أو المولدين. وقد استشهد به ابن هشام أيضاً في أوضحه، فنسب شارح كتابه محمد محيي الدين عبد الحميد البيت لرؤبة بن العجاج، ثم شرح كلمة

(١) مغني اللبيب، ج ٢، ص ٣٤٤، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة المدني، القاهرة، (دون تاريخ).

"عديد" في البيت بقوله: "العديد كالعدد، يقال: هؤلاء قوم عديد الثرى، والمعنى أنهم عدد الثرى"^(١).

وحتى المولدون من الشعراء فقد استعملوا كلمة "عديد" استعمال القدماء، أي بمعنى "عدد"، نحو قول ابن هانئ الأندلسي يصف أسطول المعز لدين الله الفاطمي:

"أما والجواري المنشآت التي سرت

لقد ظاهرتها ععدة وعديد"

ولذلك كله فليس بغريب أن نجد المعنيين بفصاحة الاستعمال اللغوي من المحدثين يبنهون إلى أن استعمال كلمة "عديد" بمعنى "كثير" هو من الأغلاط اللغوية الشائعة، حتى اضطر واضعو منهاج اللغة العربية للمرحلة الإعدادية مثلاً إلى التنبيه إلى هذا الخطأ على حاشية إحدى المقطوعات المقررة، حيث لم يتورع الكاتب عن استعمال "عديد" نعتاً بمعنى "كثير"^(٢).

أجل: إن كلمة "عديد" تعني "العدد"، ونحن نسلم بذلك! ولكن: هل صحيح أن كلمتي "عديد" و"عدد" لا تتضمنان معنى "الكثرة"؟! إننا دون شك يمكن أن نلمح منهما معنى الكثرة من خلال استعمالها: فنحن حين نقول مثلاً: كانت قبيلة تميم ذات عدد في الجاهلية وفي صدر الإسلام، فإننا نقصد "بذات عدد" أنها كثيرة العدد، ونحو ذلك قول الشاعر القديم:

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ص ٧٨، ج ١، طه دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٦٦.

(٢) انظر منهاج اللغة العربية للصف الأول الإعدادي: ص ٥١.

لَكِنْ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ

لِيسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

فقد قصد: وإن كانوا كثاراً.

ومثل ذلك كلمة "عديد" فعندما يقول الراجز:

"عددتُ قومي كعديد الطيس"

فقد قصد أنهم كثار.. ولذلك نجد محمد محيي الدين عبدالحميد قد شرح البيت بقوله: "المعنى أنهم عدد الثرى، والمراد كثرتهم، وأنهم فوق العد، قال قوم: كل من على ظهر الأرض من الأنعام فهو الطيس، وقال بعضهم: بل هو كل خلق كثير النسل نحو النمل والذباب والهوام، وقال قوم: الطيس هو الكثير من الرمل"^(١)، أجل إن كلمة "عدد" أو "عديد" تفيد الكثرة وتوحي بذلك، فلا داعي إذن إلى القول: إن كلمة "عديد" لا تعني "الكثير"، وليس هذا في رأيي هو وجه الاعتراض الحق على استعمالَي المحدثين للكلمة: ذلك أن ثمة اعتراضين آخرين يمكن أن نوجههما: أما الاعتراض الأول فينصب على الأسلوب الأول في استعمال "عديد" وهو التعسف في إدخال "أل" العهدية عليها دون مسوغ، كأن يبتدئ الكاتب كلامه بالقول: في رحلتي إلى أوروبا قابلت العديد من الأصدقاء، وحق العربية عليه أن يقول: قابلت عديداً من الأصدقاء، ولو قال ذلك لجاز دون اعتراض؛ لأنه يجوز أن نبتدئ فنقول: قابلت عدداً من الأصدقاء، وإذن فالاعتراض هو التعسف في استعمال "أل" العهدية مع الاسم "عديد" دون مسوغ، أو دون أن نشير بها إلى معهود ذكرَيَّ أو ذهني.

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك - ج ١، ص ٧٨.

وأما الاعتراض الثاني فيتعلق بالأسلوب الثاني من استعمال كلمة "عديد"، وهو أن تأتي نعتاً لاسم مذكور قبلها وهي تعني "الكثير"؛ فقد قرأت في العدد السابع والعشرين من مجلة مجلة اللغة العربية الأردني مقالة قيمة للدكتور عدنان الخطيب أوجز فيها "وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الخمسين ١٩٨٤" (١) وكان مما جاء فيها أن المؤتمر قبل قراراً حول عشر كلمات في اللغة وردت على صيغة "فعل" وهي تعني "مفعول" ومنها كلمة عديد، والذي سوغ ذلك أن كلمة "عديد" قد استعملت نعتاً "في مقدمة اللسان والمخصص.. ص ١٧٠".
والحق أنه لا اعتراض لنا على قرار المجمع لسببين اثنين:

الأول: لأن وزن فعيل من الأوزان التي تنوب عن مفعول نحو جريح بمعنى مجروح وكحيل بمعنى مكحول... إلخ.

"وأمثال هذه الصيغ في اللغة كثيرة جداً حتى قال بعض العلماء: إن اشتقاق "فعل" بمعنى مفعول من الثلاثي قياسي، غير أن أكثر العلماء قالوا: إنه سماعي لا قياسي" (٢).

والسبب الثاني: لأن كلمة "عدد" التي بمعناها "عديد" - كما رأينا - تعني أيضاً كلمة "معدودة" ولذلك نجد ابن هشام يقول في شذور الذهب: "العدد في أصل اللغة اسم للشيء المعدود، كالقبض والنقض والخطب بمعنى المقبوض والمنقوض والمخبوط، بدليل قوله تعالى: "كم لبثتم في الأرض عدد سنين" والمراد به هنا الألفاظ التي تعد بها الأشياء" (٣).

(١) ص ٤٥.

(٢) د. عبدالعزيز عتيق، المدخل إلى علم النحو والصرف، ص ٨٩، ط ٢، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧.

(٣) شذور الذهب، ص ٤٥٧، ط ١٠، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

وإذا كان مجمع القاهرة قد أقر أن تأتي كلمة "عديد" بمعنى "معدود"، فمعنى ذلك أنه يجوز أن ينعت بها الاسم، كما يجوز النعت بكلمة "معدودة"، فنقول: بقي معي دنانير عديدة مثلما نقول: بقي معي دنانير معدودة... ولكن لنا مع ذلك أن نلاحظ أن ثمة فرقاً دلاليّاً بين النعتين، فنحن إذ نقول: بقي معنا دنانير معدودة، فإنما نعني في الغالب "دنانير قليلة" ربما تعد على أصابع اليد، هذا ما يمكن أن يفهمه القارئ أو السامع، فكلمة "معدود" إذا جاءت نعتاً فإنها تعني في الغالب القلة، ولعل الذي حدد هذا المعنى الدلالي لها هو قوله تعالى: "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة"^(١)، فالثمن كما رأينا بخس، وهو دراهم معدودة أي قليلة، ولكننا حين نقول: بقي معنا دنانير عديدة، فإن القارئ أو السامع يفهم في الغالب أن الدنانير كثيرة، وهو المعنى الشائع للكلمة كما رأينا - ومعنى ذلك أن مجمع القاهرة لم يحل المشكلة اللغوية القائمة حول استعمال كلمة "عديد" حلاً جذرياً، وأنه لم يزل فيها ما يمكن أن يقال.

(١) سورة يوسف آية ٢٠.